الفصل الثالث

أهمية الأسرة فى ضبط سلوك الأطفال والمراهقين

1. أهمية الأسرة فى عملية ضبط السلوك
2. تأثير الوالدين فى ظهور الجنوح لدى الأبناء
3. بنية الأسرة وأثرها فى إنتاج الجنوح:
   - 3-1. الأسرة المفككة وإنتاج الجنوح
   - 3.2. علاقة بنية الأسرة باضطرابات الجانح
   - 3.3. الإشراف الوالدى وأثره فى الجنوح
     - 1.3.3. حدود الإشراف الوالدى أو الرقابة
4. المعاملة السيئة داخل الأسرة
   - 4-1. أنماط المعاملة السيئة داخل الأسرة
   - 2.4. المعاملة السيئة وظهور الاضطرابات المبكرة وعلاقتها بالآخر
5. معالم الطفل المعرض مستقبلا للجنوح
6. دائرة إعادة إنتاج العنف بين الأجيال

الفصل الثالث

أهمية الأسرة فى ضبط سلوك الأطفال والمراهقين

١.أهمية الأسرة فى ضبط سلوكيات الأطفال

إن الأسرة هى الوحدة البيولوجية النفسية الاجتماعية العرفية والاقتصادية الأولى التى ينشأ فيها الطفل ويتفاعل مع أعضائها . " ...وهى التى تسهم بالقدر الأكبر فى الإشراف على نمو الطفل وتكوين شخصيته وتوجيه سلوكه..." (د/ سهير كامل أحمد،1998، ص6).

إن الإنسان يعيش منذ بداية حياته الأولى فى عدد من السياقات المختلفة تبدأ أولا بالأسرة ثم المدرسة والرفاق ، والبيئة المهنية، والنادى الاجتماعى الرياضى الدينى وغيرها.

ولكن يظل السياق الأسرى من بين هذه السياقات سياق بالغ التفرد والخصوصية . "ومن هنا كان تأثير الأسرة خطيرا على تكوين شخصية الفرد، فهى الجماعة الأولية التى تنمو فى أحضانها شخصية الفرد فى سنوات حياته الباكرة والحاسمة، وهى الجماعة الأولية التى تعلمه الاتجاهات التى تتحكم فيما يتعلمه من المؤسسات الأخرى إلى حد بعيد، وقد أصبح هذا التأثير الحاسم للأسرة على شخصية الفرد والذى يزداد وضوحا مع تقدم البحث العلمى، إحدى الحقائق القليلة التى يسلم بها علماء النفس من مختلف الاتجاهات " (د/ علاء الدين كفافى،1999 ، ص 5).

وهذا ما أشارت إليه عدة دراسات (روترRotter ، فرانقتن Farinhton,1978 (بـ "أن الجنوح يتحدد بالخبرات المحيطة المؤلمة التى يتعرض لها الطفل فى حياته وبالأخص الوسط الأسرى المتسم بالمعاملة العقابية القاسية، ونقص العاطفة، وعدم الانسجام بين الوالدين، والتصدع الأسرى " (Rosenham and Sligman,1984,p102).

وهذا ما أشارت إليه كذلك دراسات كل من "ماكورد وماكورد Mc cord &Mc cord1964، جونسون Jenson 1972، وفيشر Fischer1973 " على أن نقص الحب والتعاطف ونبذ الآباء للطفل نبذا قاسيا، وعدم ثبات طرق التأديب تشكل الأسباب الأولية للسلوك الجانح. فى (خورى توما جورج،1986، ص127).

وما كشفت عنه كذلك "أمل معروف 1972" فى دراستها من " أن الجانحين غالبا ما يتعرضون إلى أساليب تأديبية تتسم بكثرة الأوامر والنواهى مقارنة مع الأسوياء " (أمل معروف،1972، ص8).

والشيء نفسه كان قد أشار إليه كل من " سيموندز Symands 1939 ، وشيلدون وقلوك Sheldon &Gluck 1950" (إلسون ، 1978، ص 549).

وهكذا اعتبرت الأسرة وفق معظم الدراسات التى ذكرناها الحصن البيولوجى النفس اجتماعى، الذى تنمو فيه بذور الشخصية الإنسانية وتوضع فيه أصول التطبيع الاجتماعى، بل تتحدد فيه بحق كما ذهب "كولى Cooley 1939 " الطبيعة الإنسانية للإنسان .

"وكما يتشكل الوجود البيولوجى للجنين فى رحم الأم، فكذلك يتشكل الوجود الاجتماعى للطفل فى رحم الأسرة وحضنها " (سيد خيرى عثمان ،1970، ص 70).

وفيها يعنى الأسرة يقول "حضير سعود1986 " تبدأ علاقات الطفل الاجتماعية والتى تكسبه الشعور بقيمته وذاته مع أفراد أسرته، حيث من خلالها ينمى خبرته عن الحب والعاطفة والحماية ويزداد وعيه لذاته، ويزداد نموه بزيادة تفاعله مع المحيطين به، وقيامه بدوره الخاص، وينمو لديه شعور بالطمأنينة، وعن طريق هذا التفاعل تأخذ شخصيته فى التبلور والاتزان " (حضير سعود،1986، ص20).

وهذا ما كان قد أشار إليه سابقا كل من "روبرت سيرز Sears R، اليونو ماكوبى Maccoby E، ليفين Lewin H " أن الأنماط السلوكية تحدد ما سوف يفعله الوليد البشرى فى مقتبل حياته أو ما يستطيع أن يفعله لكى يحصل على الإشباع والرضا... وعلى ذلك فإن الأسرة هى التى تكون وتنمى شخصيته..." (د/ سهير كامل أحمد، 1998، ص 6).

2.تأثير الوالدين فى ظهور الجنوح لدى الأبناء

إن تواجد الأسرة أو من يحل محلها ضرورى بلا شك لبقاء الطفل على الحياة. لكن ليس بتواجد الأسرة فقط يمكن للطفل أن يعيش متكيفًا نسبيًا، إذ إن إدراك الطفل لبيئته التى تحيط به وكيفية فهمها له، وكيفية فهمه لها عاملان قد يؤديان فى رأينا، إما إلى فرد يدعم بسلوكياته الإيجابية التى اكتسبها أولا من الأسرة لصالح الجماعة التى يعيش فيها،

ومن ثم يعمل على إعادة الإنتاج البشرى، وقد يضر بسلوكياته السلبية التى اكتسبها من الأسرة أولا كذلك، الجماعة والمحيط الذى ينتمى إليه فيعرقل وظيفته ويحول أهدافه.

فالأسرة هى وعاء السلوكيات القاعدية التى يكتسبها الطفل. والآباء (الأب والأم) بالأخص وغيرهم، هما مؤطرى عملية الاكتساب هذه وموجهيها حسب ميولاتهم واعتقاداتهم وتقديراتهم وانفعالاتهم واضطراباتهم وإستراتيجياتهم ...إلخ.

ومن هنا يذهب كل من علماء الاجتماع أمثال (ميلر Miller1958 ،ريس وتورى Reiss Toury 1986 وسوتزرلاند وكريس Sutherlind & Cressy 1978).

وعلماء نفس أمثال (باندورا Bandura 1977، دورن Doren 1987 ،هار Hare ١٩٧٠ ، هاوارد Haward 1986، ميفيت Miffitt 1993، باترسون Patterson 1986، باترسون ودوباريش Patterson & Deparyshe 19988، رمزى Ramsy 1989، كيى Quay 1993، سيريزن Serason 1993، تراستور Traster1973، ايرى Ury ،... وغيرهم) .

هؤلاء يتقاسمون الرأى رغم اختلاف تخصصاتهم (علماء اجتماع/ علماء نفس) بأن الجنوح مكتسب، وبأن هذا الاكتساب هو نتاج محيط قريب من الجانح ومسيطر عليه، ومن بين عوامل هذا المحيط خاصة "...يظهر الآباء على أنهم السلطة الأولى التى ترجع إليها مسؤولية توجيه النمو المعرفى والعاطفى والسلوكى والاجتماعى لأطفالهم، لذلك يشارك الآباء بنسبة عالية فى ظهور الجنوح لدى الطفل، رغم أن عامل الوراثة والعصبية يؤثران كذلك، إلا أنه يظهر أن متغيرات علاقة (أب/ ابن) لها تأثير كبير فى إضعاف أو تقوية الاتجاهات الفوضوية لدى الأبناء..."(Irène Laroche. 1998. P6).

ففرضية أن هناك علاقة مباشرة أو غير مباشرة مابين مجموعة من المتغيرات العائلية والجناح تدعمها نتائج عديد من الدراسات، وتظهر هذه الدراسات أكثر تأثير متغيرات (الآباء/ المراهقين) على اعتبار أن لها تأثيراً أكبر من غيرها.

وحسب " هوق أندروز، ليشييد Hoge Andrews & Leschied 1994 " يمكن أن تظهر هذه العلاقة فى بعدين اثنين هما:

- **البعد الأول:** ويضم ظروف بناء العلاقة، ويظهر هذا بالأخص فى ممارسة العملية التربوية، كالإشراف، الحظ على اتباع النظام، الجزاء.

ـ **البعد الثانى** : ويتمثل فى دينامية العلاقة، أى الجانب الكيفى من العلاقة، ويظهر على شكل عملية التواصل، الانتماء، العاطفة، التقبل، التدعيم، الرفض، العدوانية، المراقبة.

بعـدا العـلاقـة هـذين يربطان البـروفـيل النفـسى للآباء بجنـوح الأحـداث.Irène)، Laroche,1998,P7) وهذا ما سنعمل على توضيحه أكثر فى هذا السياق.

وإذا كانت نتائج كثير من البحوث (باندور771، دورن 70، سيرز 93...الخ)، أثبتت كلهـا أن عامل الأسـرة له أثر بعيـد فى ظهـور الجنوح لدى المراهقين .. إلا أنهـا أى هذه البحوث لم تظهر كيف يتم ذلك الأثر، أى كـيف يدرك الجانح معاملة والديه له، وما أثر ذلك خاصـة فى مفـهوم ذاته أو تصـورها، علمًا بأن فـترة ظهـور الجنوح محـددة حسب قوانين كل بلد، مما يجعلها تختلف عن بعضهـا .لكن عموما تتراوح هذه الفترة بين(13 سـنـة إلـى 21 سنة)، وهى فتـرة مراهقة تتفق حولهـا جل البحوث النفسـية (النظريات المرحلية)،على أنها فتـرة تغيير سريع وشامل فى جميع نواحى الشـخصية ؛ مما يؤثر على سلوك المراهق فى هذه الفتـرة والتى نسبيـا تدوم طويلا، إذا قارناها كمـرحلة من مراحل النمو ببـقية المراحل الأخـرى للنمو؛ حيث يعـاد فيهـا قولبة الشـخصيـة من جديد وفق مـعاييـر ثقافـية واجـتـمـاعـية نسـبيـا مأخـوذة خـارج البيت (المدرسـة، الزملاء وسـائل الإعلام...الخ).

إلا أن البيت يبـقى العاكس والموصل الحقـيقى لهذه المعاييـر، حيث يتشـبع بها الطفل ويدركها منذ بدايته وبها يفسر المثيرات المحيطة به.

3.بنية الأسرة وأثرها فى إنتاج الجنوح

أصبح من المسلم به أن الأسرة تلعب دورا أساسيا وقاعديا فى نمو شخصية الطفل من جميع الجوانب، تأثيرات هذا الدور يمكن أن تكون إيجابية كما يمكن أن تكون سلبية.

وتظم البنية الأسرية عادة بالإضافة إلى الوالدين والإخوة ، والأخوات، وفى كثير من الحالات الجدة والجد...الخ وبالأخص فى مجتمعنا العربى الإسلامى.

وتعيش هذه البنية دينامية داخلية، وهى مجموع العلاقات والتواصل الذى يجرى بين أفراد الأسـرة، كنسق تواصلى اجـتماعى قد يـتعرض إلى تعطلات على غـرار كثـير من الأنسـاق الاجـتـمـاعـيـة الأخـرى ؛ مما يعرض أنمـاط التواصل إلى الانقطـاع أو التهـديد بالانقطاع، الشىء الذى يجعـل هذه العلاقات الدائرة تنكمش أو تنقطع مما يعـرض أفراد الأسرة الواحدة إلى الضياع أو التهديد به.

والأطفال والمراهقون يعتبرون الحلقة الموصلة بين عناصر هذا النسق الأسرى. وبالتالى نضن أن إصابة هؤلاء ستكون أكثر حدة مما ينعكس على شخصياتهم، وتظهر فى سلوكياتهم اضطرابات نفسية، ومن بين هذه الاضطرابات الخطيرة اضطراب الجنوح.

إلا أنه وعلى الرغم من كل التغيرات التى تحيط بالأسرة، وعلى الرغم من نقص التواصل بين أفرادها أحيانا، تبقى الأسرة الوعاء الوحيد الذى يغذى الطفل والمراهق، فهى التى تقدم الأمان والاستقرار والحب فى العيش . ويشاركها فى بعض ذلك كثير من المؤسسات الاجتماعية .

غير أنه وفى وضعيات معينة تتعطل هذه البنية فى تقديم وإيصال النموذج المثالى للطفل. وذلك بسبب انفصال الوالدين أو الغياب الكلى لأحدهم أو التخلى عن الطفل ومن جراء ذلك تظهر فى حياة الطفل صعوبات كثيرة، ولذلك يمكن أن نتساءل هنا:

- هل ينجم فعلا عن الأسرة المفككة جنوح للأحداث أكثر من الأسرة غير المفككة ؟.
- ما الاضطرابات التى يمكن أن تكون بنية الأسرة هى العامل الأساسى فيها انطلاقا من أنها متصدعة ؟.

3-1. الأسرة المفككة وظهور جنوح الأحداث بها

وللجواب عن السؤال الأول أعلاه حاول كل من " جوزيف رانكان، إدوارد ويلس " Josef R. E.welles 1991 من خلال إحصائهما لـ ٥٠ دراسة حول الموضوع أجريت فى النصف القرن السابق، وتبين أن قياس هذه العلاقة يتراوح مابين(إلى 10) مما يدل على أن هناك تباينًا قوياً فيما بينها، وذلك يرجع إلى عدة عوامل. منها: المنطلقات التى انطلقت منها هذه الدراسات، والمؤشرات المستعملة، المنهجيات المختلفة..." (Rankin J .(Wells E, 1991,pp71-93.

وللاستمرار فى الكشف عن مدى هذه العلاقة، يقول "ميكيلى ل Muccielli L 2000 ..." "يجب التنبيه إلى أن الدراسات التى اعتمدت فقط على الجانحين الذين هم تحت كفالة العدالة لا يمكنها بمفردها أن تقيس الوزن الحقيقى لهذا العامل (التفكك الأسرى) " (Muccielli L, 2000,p26).

هذا الرأى نفسه كان قد أشار إليه " هايرشى 1969 Hirschi " من قبل، وعلق على

نتائج دراسة " رانكان، ويلس وآخرين) أعلاه .إن ما ذهب إليه كل من "رانكان ،ويلس ثم بعد ذلك فان فورهيس Von Vorhis وآخرون لا ينبئ بالحقيقة ؛ ذلك أن هؤلاء درسوا فقط الأسر المفككة التى توبع أبناءها من قبل العدالة مقارنة بالأحداث الذى قاموا بمخالفات ولكنهم لم يقدموا للعدالة. إن الدراسات من هذا النوع كما يرى "هايرشى " "... لا تعكس الواقع كما هو بل توسم هذه الأسر بعدم مقدرة الوالدين على تربية أبنائهم ومراقبتهم ، مقارنة بالأسر التى تتمتع باستقرار وتعايش معا (الأب/ الأم/ الأبناء). كما ينسى هؤلاء أن الأسر المفككة وأبناءها الجانحين يلتقون معا فى العيش فى بيئات أقل ما يقال عنها أنها غير مناسبة أصلا للعيش. ولذلك يظهر أن هناك رابطًا ظاهرًا فيما بينهم، وهو المعطى الاقتصادى الاجتماعى ,Hirschi T) 1969,P242)".

غير أنه يظهر من هذا النقاش أن الإشكال مطروح فيما يخص تحديد مصطلح الأسرة المفككة "Broken Home" ولعل التعريف القاعدى لها الذى نراه يشمل نوعية هذه الأسر هو الذى قال به " رانكان ويلس 1986" وهو " أن الأسرة المفككة هى التى يعتبر أحد أفرادها غائبًا " . والغياب هنا يظهر فى أشكال كثيرة، فإما أن يكون بالموت، أو الطلاق ، أو نتيجة لصراع مؤقت، أو لتغيير العمل، أو للذهاب للخدمة العسكرية، أو بدخول المستشفى لمدة طويلة، أو لدخول السجن ...إلخ.

كما يمكن تحليل أشكال هذه الغيابات إلى:

غياب أحد الوالدين أوكليهما، كليا أو جزئيا، إراديا أو غير إرادى قابل للعودة وغير قابل لها.

غير أنه وحسب اطلاعنا وجدنا قليلا من الدراسات الكمية ، التى اهتمت بالأخص بالاختلافات المهمة فى مفهوم التفكك الأسرى .

ومن البحوث المهمة والحديثة فى هذا المجال والتى اهتمت بالظاهرة ليس فقط فى الوسط المكفول بالعدالة، وإنما اعتمدت على عينة وطنية شاملة لكل أعمار الأحداث من (11 سنة إلى 21 سنة) وفى الوسط التربوى بالأخص، كان القصد منها دراسة الصحة العامة للمراهق فى الوسط التربوى بالمجتمع الفرنسى ؛ حيث طبق استبيانًا يتكون من 200 سؤال على عينة تتكون من 12392 مراهقًا موزعين على 578 قسمًا بـ 186 مؤسسة تربوية.

ومن النتائج التى لها علاقة مباشرة بظاهرة الجنوح فى المجتمع الفرنسى:

1 ـ استهلاك المخدرات ويختلف الاستهلاك حسب العمر، وجنس الحدث، والمستوى الاجتماعى الاقتصادى (يرتفع الاستهلاك لدى الأحداث من الأسر ذات المستوى الاقتصادى العالى، وعند أطفال الأسر المفككة (طلاق، موت). كما يرتبط التعاطى كذلك بضعف المستوى الدراسى، المناخ الأسرى غير المناسب، التعرض للانتهاكات خاصة الجنسية، نمط الحياة(تكرار الخروج من البيت).

2 ـ التصرفات العنيفة والمستمرة وترتبط حسب "شوكى. م وآخرين Choquet M*et al* بجنس الحدث، وعمره، ونوع السكن، وجنسيته، والفئة الاجتماعية المهنية للأب، ووضعية زواج الوالدين، والعجز الدراسى، والمناخ السيئ داخل الأسرة، والغياب والتكرار الدراسى، السرقة، محاولة الانتحار، التواصل بالوالدين...إلخ. (Choquet M. Ledoux, 1994).

وتخلص الدراسة فى الأخير إلى أن الوزن النسبى للعوامل الاجتماعية، تظهر أنها أقل اعتبارا من العوامل الأسرية والمدرسية المرتبطة بها.

أما الاستثناء الوحيد فيخص عامل العنف، الذى يتساوى تأثيره بكل من عامل الأسرة والعامل الاجتماعى.

أما بالنسبة للأسرة المفككة المرتبطة أصلا (بالطلاق أو الموت) ظهر أن لها تأثيراً قليلاً على استهلاك المخدرات، لكن البنية الأسرية والمناخ السائد داخلها ليس وحدهما فى كل الحالات لهما وزن مرجح لظهور الجنوح، وإنما تواجد هذه الأسر فى محيط غير لائق هو الذى جعل ارتفاعًا نسبياً للجنوح يظهر لدى أطفال هؤلاء ؛ خاصة فى متغير الصعوبات المدرسية وقيامهم بتصرفات خطيرة، مقارنة بالمراهقين ذوى الأسر السوية .

كما أن عامل المناخ السائد فى الأسرة ظهر هو الأكثر تأثيرا على تعاطى المخدرات والتصرفات العنيفة المتواصلة أكثر من عامل "البنية الأسرية"، حيث يقول ١/ ٧ من التلاميذ أنه غير مرتاح فى أسرته (Choquet M. *et al*, 1994.P).

لذلك وصلت الدراسة إلى أن عاملى التفكك الأسرى (الطلاق/ الموت)، المناخ السائد داخل الأسرة من العوامل الأكثر ارتباطا بظهور الجنوح.

النتيجة نفسها وصل إليها البحث الذى أجراه "مارسيلو لايبى Marcello Aebi 1997" فى جامعة لوزان بسويسرا حيث طبقه على عينة تتكون من 970 حدثاً فى عمر مابين (14ـ21 سنة)، فظهر للباحث أن هناك خمس فئات من السلوكيات، يقوم بها هؤلاء الأحداث فى هذا السن، وهى كالتالى:

1ـ السرقات (نقود، قطع غيار السيارات).

2 ـ السلوكيات العنيفة (تخريب أموال الغير، حمل السلاح والتهديد به، المشاركة فى المشاجرات، الضرب والجرح العمدى، إشعال الحرائق).

3 ـ المخدرات (استهلاكها والمتاجرة بها سواء كانت لينة أو خشنة).

4 ـ انحراف الأحداث (الاحتيال، السياقة دون رخصة، الفضاضة Incivilités).

5 ـ سلوكيات الإشكالية Comportements problématiques) الهروب، التغيب عن المدرسة).

بالإضافة إلى ذلك قام " Aebi 1997 " باختبار متغير الإشراف الوالدى؛ حيث وصل إلى أنه ليس هناك اختلاف فيما يخص هذا المتغير بين الأطفال الذين يعيشون مع والديهم وبين الأطفال ذوى الأسر المفككة.

وعليه عموما يذهب "أيبى " إلى القول "... بالتخلى عن فكرة تأثير بنية الأسرة كمسبب لظهور الجنوح إلى الاهتمام بفكرة نوعية العلاقات الفردية مابين أفراد الأسرة (Aebi M,1997,P23).

وهذا فعلا ما أثبتته دراسة " ويلس .رانكان Walls,Rankin 1991 "بعد تحليلهما لـ 50 راسة حول الموضوع ، ووصلا إلى القول بأن العلاقة بين الأسرة المفككة وظهور الجنوح على مراهقيها ضعيفة ومنعدمة بالنسبة للمخالفات الخطيرة (سرقات، سلوكيات عنيفة). ومرتفعة نسبيا بالنسبة لتناول المخدرات (بالأخص اللينة منها). ولها دلالة بالنسبة للسلوكيات المشكلة (كالهروب، التغيب عن المدرسة، مشكلات النظام داخل القسم الذى يطلق عليه الأمريكيون " Statut offenses " فى (Mucchielli L,2000 p30).

وعليه، تجمع كثير من البحوث الحديثة ومنها النماذج التى قدمناها كأمثلة للاستدلال

بها .إن بنية الأسرة ليس لها التأثير الحاسم على ظهور الجنوح، وإنما يشترك معها عوامل أخرى خارجة عنها، تصبح لها أثر على توليده.

وفى هذا الإطار يمكن اعتماد ما قال به " فان فورهيس وآخرون *et* Van Voorhis *al* 1988' من "الأسر التى تسود فيها الصراعات أكثر خطراً على الأطفال والمراهقين من الأسرة المفككة " فى (Mucchielli L .2001.P28).كما اعتبر (الزوج لاوبير Loeber R. Loeber M 1986 أن هذه الملاحظة صالحة بالنسبة للجانحين، وكذلك بالنسبة للمجرمين الكبار .

وهذا ما دعى كذلك السيدة " ماك كورد Mc Cord 1982 " إلى الخلاصة التى مفادها أنه عندما ينتهى الصراع بالأسرة ويتم تفككها، يظهر أن غياب الأب تكون له فائدة إذا استطاعت الأم إظهار العاطفة المطلوبة للأطفال الذين هم تحت رعايتها." (Mc Cord J. 1982, pp 113-128).

وهذه أحد العوامل الأساسية المساعدة فى عدم دخول المراهقين فى عالم الجنوح. ولذلك نجد الباحثة "هيثر جيبى Heather Juby 1970 " فى بحثها لنيل الدكتوراه على عينة من المراهقين فى عمر 15 سنة، بينت أن الأطفال الذين تربوا فى أسرة أحادية (الأم فقط) يمثلون نسبة من الجناح تتشابه بالأطفال الذين تربوا فى أسر كاملة أى بنسبة % 24 إلى 21% ، أما نسبة الجانحين دون أب فهى % 7 عندما يرجع غيابه إلى وفاته ؛ مما يفسر ـ فى ذلك الوقت ـ أنه يتحتم على الأطفال فى حينه الدخول مبكرا لإعالة بقية أفراد الأسرة.

أما عندما يكون الغياب بسبب الانفصال، فترتفع نسبة الجنوح إلى 33% ، فى حين إذا حل رجل آخر مكان الأب فترفع هذه النسبة إلى % 38 . بينما نجد الأطفال الذين تتخلى عنهم أمهم ويعيشون مع أبيهم يسجلون أكبر عدد من الجنوح، وذلك بـ 3 مرات أكثر من الأطفال الذين يعيشون مع أمهم فقط، فى (Daniel Baril, 2001) .

وهكذا يظهر من مختلف هذه الدراسات الكمية أن ارتفاع كم الجنوح ليس دائما سببه تفكك الأسرة، وإنما هناك عوامل أخرى تضاف إلى انفجار الأسرة مما يظهر أن تهدم الأسرة كليا أو جزئيا (الأسرة الأحادية) كأنه السبب المباشر لشيوع ظاهرة الجنوح فى هذه الأسر.

كما يظهر كذلك أن انتشار الجنوح فى الأسر المفككة يختلف باختلاف المشرف على الرعاية بعد انفصال الأسرة (أم أو أب)، وذلك يرجع إلى كيفية الرعاية والإشراف وكثافتهما وفى أى عمر يتمان، مضاف إليهما العوامل الاقتصادية الاجتماعية والثقافية المحيطة .

كما ظهر كذلك أن بنية الأسرة ليس لها تأثير كبير على نوعية الجنوح نفسه، فلم تظهر مخالفات كثيرة مثل (السرقة، السلوكيات العنيفة)، بينما ارتفعت نسبيا فيما يخص تناول المخدرات، فى حين ظهرت بصورة أكثر حدة فيما يخص السلوكيات المشكلة (الهروب من الدراسة، التغيب، مشكلات النظام داخل القسم،...إلخ).

وهذا يعنى أن هناك عوامل متعددة ـ بغض النظر عن غياب (ألأم / الأب) _ لها تأثير أكثر من غياب أحد الأبوين على انتشار ظاهرة الجنوح فى هذه الأسر.

مما يجعلنا نقول مع " أيبى Aebi " إن بنية الأسرة ليست هى السبب المباشر ـ وإنما لها تأثير على ذلك بلا شك _ مما يجعلنا نهتم أكثر بفكرة نوعية العلاقات الفردية مابين أفراد الأسرة الواحدة.

غير أن هذا لا يمنع من التساؤل حول ما الاضطرابات التى يمكن أن تكون بنية الأسرة هى العامل الأساسى فيها انطلاقا من أنها بنية متصدعة ؟

3. 2 . علاقة بنية الأسرة باضطرابات الجانح

يجب القول أولا أن البحوث قليلة التى حاولت التعرض إلى الآثار الخاصة، التى يتركها تفكك الأسرة على نفسية الطفل والمراهق الجانح، وتكاد تنعدم بالأخص فى الدراسات النفسية لدينا بالجزائر.

بحيث لم نكاد نعثر على أى دراسة وبائية (إبدمولوجية)لمعرفة أولا مدى انتشار ظاهرة تفكك الأسرة فى البيئة الجزائرية، ولمعرفة ثانيا مدى انعكاس ذلك على أفرادها.

أما القليل من البحوث التى استطعنا الإطلاع عليها (وهى بحوث كلها أجنبية) أجمعت على أنه إذا تصدعت الأسرة أو تفككت بطريقة من الطرق التى ذكرناها سابقا، فإن آثار ذلك تنعكس على كل أفرادها أى الوالدين والأبناء أولا كأفراد، وثانيا كمجموعة علاقات، ومن ثم فإن هذه الآثار ستكون مختلفة باختلاف الأفراد المكونين

لهذه الأسرة، ولا تخرج هذه الآثار عن كونها ذات طابع اجتماعى اقتصادى وعلائقى وأخلاقى وعاطفى وثقافى.

ونقصد بتأثير بنية الأسرة (أنماط التفكك المختلفة) فى ظهور الاضطرابات لدى الجانح، أى ما الاضطرابات النفسية بالأخص التى تصيب شخصية المراهق والذى يمكن بسببها التحول إلى الجنوح ؟.

وفى هذا الإطار أجرى " بورقنيون Bourguignon 1985 " فى فرنسا بحثًا كانت من نتائجه " أن الطلاق كشكل من أشكال تفكك الأسرة، وهو الشكل الأكثر انتشارا، ليس هو السبب فى ظهور كثير من الاضطرابات على الطفل أو المراهق. لكن ما يسبق الطلاق وما يتبعه من صراعات بين الوالدين هو المسبب للاضطرابات لدى الطفل... أما إذا تم دون صراع بين الوالدين، فهو مجرد فترة قلق لا تترك آثارها على المدى المتوسط والمدى الطويل..." (Bourguignon O. *et al*.p127). ولذلك يصبح طلاقًا بمعروف خير من صراع يضر ولو اقتضى الأمر قطع العلاقة بين الزوجين كليا.

وهذا ما أثبتته كذلك على طول عدة سنوات الدراسات الطولية الأنقلوسكسونية من خلال عدة مجلات متخصصة فى ظاهرة التفكك الأسرى، حيث فى مجموعها وصلت إلى نتائج عامة ومتقاربة، رغم الاختلاف المنهجى، واستعمال المصطلحات المتباينة والتى لخصها لنا "ل. ميكيلى 2000 "فى أن :

ا ـ للطلاق آثار نسبية لكنها حقيقية على الصحة الجسمية والنفسية، وعموما على درجة الإحساس بالمتعة Well- being للطفل ، حسب "كوت شوماخير Kot shomakher " . وإذا كان كذلك ما آثاره على مختلف المراحل العمرية بالنسبة للطفل والمراهق ؟ .

غير أنه فى هذا الجانب جاءت نتائج الدراسات متضاربة بل متناقضة أحيانا ، كما يقول "ل. مكيلى، أما الدراسات حول آثار الصراع الوالدى على المراهقين، بينت أنها أحسن مؤشر للكشف عن الاضطرابات المنغصة على الإحساس بالمتعة Well ـ being .

فى حين اتفقت معظم هذه الدراسات على أن الطلاق يسبب الاكتئاب لدى المراهق، مما يجعله يؤثر بدوره فى النتائج المدرسية، ثم المهنية، ثم على الحياة العاطفية للمراهق فالراشد.

2ـ كـمـا أن انفصـال الأبوين منـتج للضـغوطات والقـلق، الذى دون شك له أثر فى سلوكيات الطفل، غير أنها آثار مؤقتة.. إنه أساسا أزمة تحول فى توازن علاقات الأسرة.

لكن ما الذى يصـيب الطفل أو المراهق بعد تمام الطلاق ؟ حـاول أن يجيب عن ذلك الباحث "جون ديفريون (Jean Devrillon 1996) حيث يرى أن فى السنة الأولى التى تأتى بعد الطلاق مـباشرة تظهـر الأمهات أنهن أكـثر تسلطا وأكثـر عطاء للأوامر، وأقل نشاطا، يسلكن بصورة انفجارية، وأقل اهتماما بتنظيم البيت.

أما الأباء فـإما منشقـون عن بقية أفـراد الأسرة ،أو مطرودون، أو فى عـلاقة متـقطعة ودورية بالأسرة، ويصبح اهتمامهم بتطبيق النظام داخل الأسرة أقل.

بالنسبة للأطفال يتحتم عليهم تسيير القلق وآثاره، واستدماج وضعيات ما قبل وأثناء وما بعد الطلاق، والعمل على تجاوز الإحساس بالذنب . إلا أن ما هو صحيحا فى السنة الأولى ليس كـذلك فى السنـة الثـانية، وعـليـه يلاحظ فى آخـر هذه السنة إعـادة توازن للعـلاقات، فـتظهـر الأمهـات أنهن أكـثر صـبرا ونشـاطا ؛ ذلك لأنهن ربما بدأن تجـاوز الإحساس بالفشل، وأنهن وجدن تصرفات أخرى أكثر ثباتا.

كمـا يصبح الآباء أكـثر ضبطا ويظهـر الأطفال تعـاونًا أكبر، وعـموما يـظهر أن قلق الأزواج يقل، وترجع الـوظيـفـة الوالدية إلى أدائهـا من جـديـد، ولكن وفق العـلاقـات الجديدة التى بنيت عليها. (Deuvrillon J,1996,PP 82-83) .

كـما يجـيب عن السـؤال أعـلاه كل من " والرستـين، كـيلى Kelly , Wallerstein " 1986 من خلال دراستـهما لما يحس به الأطفال فى مختلف الأعـمار من جراء تفكك الأسرة ، طبقاها على عـينة من المراهقين تقدر بـ 131 فردًا لمدة خـمس سنوات؛ لدراسة رد فعلهـم على انفصال أبويـهما ومـدى أثره فى سلوكيـاتهم وفى شخـصياتـهم؛ حيث وصل البحث إلى القول بأن المراهق يظهر أمـام انفصال أبويه (الطلاق)، رد فعل عاطفى قوى عن طريق التعبـير باستعمال العنف اتجاه أحـد الوالدين؛ وبالأخص الذى يعتقد أنه المسؤول عن فشل الزواج. وفى آن واحـد عادة ما يتفادى الطـفل أو المراهق الانتصار إلى أحد الوالدين فى عـراكهما؛ لإحـساسه بأنه متـهم بانحيازه لطرف على حـساب الطرف الآخر، كما يبحث المراهق من جراء كل هذا على الاحتماء من الشعور بالحزن والغضب

والآم والضياع والذنب ، مع إظهار نوع من الانفصال (عكس التعلق) ؛ مما ينجم عنه الابتعاد عن الأسرة والميل أكثر إلى جماعة الرفقاء، أين يمارس مختلف الأعمال الاجتماعية، كما يأتى الانفصال ليتداخل أحيانا مع عملية المراهقة فى الوقت الذى يظهر فيه هذا الأخير مشكلة الهوية ؛ بسبب غياب أحد الوالدين (اضطراب الهوية)؛ مما ينجم عنه أن يصبح المراهق فى علاقة تبعية اتجاه والديه؛ بل قد يصل به الحد إلى أن تنحط قيمة والديه وكل الكبار كرمز للمثل الأعلى أمامه فيصبح بذلك ناقدًا لهم.

كما نبها الباحثان " والرستين، كيلى" إلى أن ظهور الاضطرابات العاطفية والنفس جسمية والسلوكية عادة ما تكون مرتبطة بصراعات الوالدين أكثر منها ارتباطا بالطلاق نفسه؛ ذلك أن الانفصال يمثل تغييرا مهما فى حياة المراهق مما يؤدى إلى سقوط عالمه المبنى على الأمن والاستقرار، وهذا ما يؤدى إلى ظهور عدة اضطرابات جمعها الباحثان فى :

- اضطرابات نفس جسمية ، وهى عبارة عن أوجاع جسمية، اضطرابات النوم، فقدان الشهية.
- اضطرابات عاطفية، وتتمثل فى ظهور فترات قلق واكتئاب، إحساس بالذنب، أعراض فصامية.
- اضطرابات سلوكية، وتظهر على شكل القيام بمخالفات، هروب، قلة اهتمام بالأعمال المدرسية.

لكن كيف يتعامل الوالدان المنفصلان مع طفلهما؟ حيث يلخص الباحثان ذلك بأن يلتجئ الوالدان إلى تصرفات مختلفة ومتنوعة، ولكن جلها غير سليم، كالتالى:

- استعمال الطفل أو المراهق كوكيل سر أحد الوالدين، فيطلعه على المصاعب التى يمكن أن تنجم عن الطلاق.
- إظهار الطرف الآخر فى صورة غير لائقة فى عين الطفل أو المراهق.
- البحث عن كيفية إخفاء قصور (الوالد/ ة) عن طريق إظهار أمام الطفل (بأنه/ ها) متسامح ويظهر حماية زائدة...إلخ.

- إظهار العنف والرفض أو التلويح به اتجاه الطفل أو المراهق.. ذلك لأنه متهم بأنه قريب من الطرف الآخر أو متعاون معه.

- الطلب من الطفل أو المراهق.. أن يتحمل مسؤوليات تتجاوز عمره محل الطرف الغائب (نضج مسبق Hyper maturation).

- ترك الطفل أو المراهق وعدم مقاسمته العيش اليومى، لأن الوالدين كل منهما مهتم بأموره الخاصة.

- جعل الطفل أو المراهق (مراسلا Go.beliveen) ما بين الوالدين لكى يوصل رسائل عنف أو للحصول على معلومات.

- اعتبار الطفل أو المراهق كملكية مما يؤدى إلى البحث عن اكتسابه وإبعاده عن الطرف الآخر.

- ينظر إلى الطفل أو المراهق مباشرة على أنه سبب مشكلات الوالدين، وهذا يعطيهما إحساسا بالراحة.

كما يظهرالبحث نفسه رد فعل الطفل على ممارسات الوالدين المذكورة أعلاه، فتظهر كالتالى:

- يحس الطفل بمسئوليته عن انفصال والديه أو عدم تفاهمهما، وهكذا يتساءل ما لذى فعله حتى وصلت الوضعية بين أبويه إلى ما هى عليه ؛ بهدف الوصول إلى السلوك الذى يرضيهما.

- يتمنى أن يرى والديه قد اجتمعا من جديد ،وأحيانا حتى بعد عدة أعوام من الانفصال، بل قد يصل أحيانا إلى حد محاولة التوسط بينهما للرجوع إلى بعضهما البعض.

- يمكن أن يختار جانب أحد الوالدين ،لأنه يدركه على أنه ضحية الطرف الآخر، ليصل إلى حد تولى حمايته بل يصبح حامل أسراره، كما يمكنه أن يصبح كافلا للوالد المصاب بالصدمة أو الاكتئاب نتيجة الانفصال.

- يمكنه أن يفرح لذهاب الوالد من الجنس نفسه حتى يتسنى له إعادة خلق علاقة

شبقيةحقيقية مع الوالد من الجنس المعاكس(أنا ابنتك أفهمك أحسن من أمى / أنا ابنك أفهمك أحسن من أبى).

- يمكنه أن يجعل من الوالد الغائب مثالاً أعلى، بينما يعتبر الذى يعيش معه هو المسؤول عن ذهاب الوالد الآخر.

- يمكنه أن يعيش الإحساس بالتناقض أمام ضغط الوالدين ؛ بحيث لا يريد أن يسئ إلى أى أحد منهما، بل يبحث عن مؤازرتهما بأى ثمن.

- يمكنه أن يثير الوالدين على بعضهما البعض ؛ للوصول إلى تحصيل مناسب (مادى وعاطفى)؛ لأن الانفصال منعه من التمتع بأشياء كثيرة.

- يمكنه أن يتقول على كلا الوالدين لكى يجلب مكاسب أو لإثارة أحدهما على الآخر.

- ظهر أن للطفل والمراهق صورة متداخلة أو مضطربة لوالديه على مستوى التخيلات (الرورشاخ/ تفهم الموضوع)؛ بحيث تمثل صورة الأب صفات الأم (حنونة، رؤوفة،وفى آن واحد ضعيفة ومسيطر عليها)، كما أن صورة الأم تحمل صفات الأب (سيطرة، برودة،وفى آن واحد مسيطرة ماحقة)، وهذا ما يسمى باضطراب الهوية الجنسية، فى (Robert Pelsser.1989.pp 460-462) .

وهكذا إذا لم يبعد الطفل أو المراهق عن صراعات الوالدين فهو بصورة مباشرة سيكون طرفًا داخل علاقات الزوجين، وهذا ما يتماشى على المستوى التخيلى مع إعادة إحياء المجال البدائى أو الوضعية الأوديبية ؛إذ إن انفصال الوالدين يمكن أن يطرح مشكلات متنوعة لدى الطفل ذات طابع بالأخص علائقى ونفس عاطفى.

وهكذا يظهر أن الطلاق يؤثر بصورة مباشرة وفردية على نفسية وعواطف الفرد، وكذلك على العلاقات وعواطف المجموعة الأسرية ككل.

إلا أن كل ذلك يرجع إلى مجموعة التفاعلات الدينامية الأسرية، وكيفية إدراك الطفل أو المراهق لها..عندها يصبح للطلاق أثر خطير على شخصية الفرد؛ لذلك يتحتم معرفة ما إذا تغيرت الوظيفة الأسرية كليا بفعل الانفصال.. أى هل آثار هذا الأخير ناتجة لأن الوالدين لا يعيشان تحت سقف واحد، أو لأن مجموعة دينامية العلاقات قد تحورت؟ خاصة إذا كان هناك صراع مفتوح بسبب الانفصال.

كما يجب معرفة كما يرى " ديمو. د Demo D 1993 "، "هل أسرة المراهق مكونة من الأبوين والأبناء (الأسرة الذرية) ومنكفئة حول نفسها؟ كذلك ما إذا يوجد أهل آخرون ـ بالأخص الجدين ـ في المجال العاطفي للطفل، مضاف إليه معرفة كذلك المستوى المعيشي للأسرة لكلا الأبوين أو أن أحدهما يعيش الخوف من الفقر؟..." .(Demo D ,1993,p 49)

إن النتيجة التي يمكن نسبيا أن نصل إليها من خلال البحوث التي مرت معنا (Wallerstein 1986,Deuvrillon 1986, Bourguignon 1985, Van voorhis *et al* al 1988, Mc Cord 1982,Aebi 1997... أن العامل الأساسي والذي له تأثير بدرجة عالية مقارنة ببقية العوامل الأخرى، هو مدى وجود صراع بين الوالدين بالأخص، مضاف إليها نوعية علاقات الوالدين كل على حدة بالطفل ، والخارجة عن علاقات الزوجين ببعضهما .

بمعنى آخر ليس الانفصال هو السبب المباشر في ترك آثاره على الطفل، وإنما يظهر ذلك فقط عندما يقترن بصراع ما بين الوالدين، مما ينتج عنه انحطاط في العلاقات التي تربط الطفل بأحد الوالدين أو كليهما.. لكن في كل هذا ما هو السلوك الذي يتأثر أكثر بآثار انفصال الأبوين؟

على العموم أثبت بحث كل من " Short1998 Mac Cord 1982 "وغيرهم أن آثار الانفصال ليست منتجة للسلوك الجانح مباشرة، وهذا ما أشار إليه فيما بعد "Aebi 1997 " وإنما تنجم عن ذلك سلوكيات أخرى كالهروب، قلة التركيز في المدرسة، مشكلات النظام، استهلاك المخدرات.

وهكذا.. فإن انفصال الأبوين وبالأخص (بالطلاق) حدث لا يمر دون أن يترك أثره، أو دون أن يترك له معنى لدى الطفل أو المراهق .

غير أن الذي ظهر من خلال الدراسات التي مرت معنا أن الانفصال ليس في حد ذاته عامل أساسي في الاضطرابات النفسية، ولكن تأثيره يظهر في النسق العام للعلاقات داخل الأسرة ؛ بمعنى العلاقات مابين الوالدين والطفل من جهة والعلاقة مابين الوالدين أنفسهم. أما الشيء غير المنتظر، وهو لم نجد في كل البحوث التي اطلعنا عليها ولا بحث واحد أشار إلى أن الطلاق بالأخص له دلالة مباشرة على الجنوح.

كما أن معظم نتائج البحوث التى أشرنا إليها أعطت أهمية اكثر للعوامل العلائقية داخل الأسرة أكثر من العوامل الراجعة إلى بنيتها .

وهذا ما كان قد أشار إليه سابقا كل من الزوج " كلوك وكلوك 1950"، وماكورد وماكورد 1959 وهذا كذلك ما أشارت إليه البحوث الأنقلوسكسونية فى السبعينيات، مؤكدة أن الأسرة المفككة ما هى إلا حجاب أو ساتر يخفى أثر عوامل أخرى أكثر دلالة وبالدرجة الأولى الصراع الوالدى الخطير، وبدرجة أقل الفقر الاجتماعى الاقتصادى.

وهذا كذلك ما أشارت إليه البحوث الفرنسية على العموم، وبالأخص منها البحوث التى أجريت فى مركز "فوكريسون Vaucresson " فى السبعينيات حيث أشارت إلى أن التفكك الأسرى عامة ليس فى أهمية عدم التفاهم الوالدى المرتبط بدوره بالمصاعب الاجتماعية الاقتصادية .

إن عدم التفاهم الوالدى بأشكاله المختلفة وما ينجم عنه من صراع خطير، يضر بلاشك بالعلاقات التى تنسج عبر المكان والزمان بين أفراد الأسرة . وما يضاف إليه من فقر اجتماعى اقتصادى.. كلها عوامل تظهر وتتجسد، ويعبر بها الوالدان من خلال المعاملات الوالدية اليومية اتجاه طفلهما .

مما يجعلنا نفترض أن هذه المعاملات، إن أدركت من قبل الطفل (الجانح) أنها مهددة فعلا.. فإن آثارها ستكون وبالاً على شخصيته. ومن ثم على سلوكيات الطفل تجاه نفسه (فيتجه نحو تعاطى المخدرات)، أو تجاه الآخرين وممتلكاتهم (سلوك السرقة والاعتداء على الغير).

3 2. الإشراف الوالدى وأثره فى ظهور الجنوح

اختبرت بحوث الإجرام لكل من " ريس وتورى Reiss & Toury1986، رمزى Ramsy 1989، هوارد Haward 1986، إيرى Ury 1990، سيرس Sears 1993، كيى Quay 1993، ..." وغيرهم . ـ مع ملاحظة أن جل هذه البحوث أجريت فى أمريكا ـ دور أهم عوامل الجنوح، ووصلت عمومًا إلى إيجاد محرك أساسى للجنوح، وهو كيفية المعاملة الوالدية ومن خلالها الإشراف الوالدى (Supervision Parental)، مضاف إليه نوعية العلاقات بين الوالدين والأبناء.

غير أن أكثر هذه البحوث أكدت تبعية عامل الإشراف الوالدى إلى البيئة الاقتصادية الاجتماعية للأسرة، مثلما أكدت جل البحوث التى ذكرناها سابقا تبعية عامل بنية الأسرة للمتغيرات الاقتصادية الاجتماعية.

ففى بحث "أسباب الجنوح Causes of delinquency " لـ " ترافيس هايرشى Travis Hirschi 1969 عرف مفهوم "التعلق L attachement "على أنه استدخال أو استدماج التبعية للوالدين ولحنانهم وتشجيعاتهم لتصرفات أبنائهم. ومن هنا ظهر أن المراقبة والإشراف الوالدى هما عبارة عن آليات دفاعية غير مباشرة حيث يقول هايرشى:

"The child is less likely to commit delinquent acts not because his parents actually restrict his activities, but because he shares his activities with them ; not because his parents actually know where he is ,but because he percieves them as aware of his location . Following this line of reasoning, we can say that the more the child is accustomed to seeking or getting their opinion about his activities, the more likely he is to perceive them as part of his social and psychological field. And the less likely he would be to neglect their opinion when considering an act contrary to law. (Hirschi T ,1969,p91).

ولذلك.. فإن استدماج السلوكيات الوالدية المبكرة فى شخصية طفلهما هى التى تكون فيما بعد إشرافا مستمرا حتى ولو كان ذلك فى غياب الوالدين، وهذا ما نسميه نحن "الضمير" فهو مصاحب للطفل أو المراهق أينما حل.

ويعبر عن ذلك "ميكيلى ل Muccheilli L "، "...بأن التعلق بالوالدين يظهر بالأخص أمام الوضعية الخطيرة عن طريق ظهور الحضور النفسى المستدمج ليمنع الطفل من المرور إلى الفعل " (Mucchielli L , 2000,P68).

كما يلخص ذلك "هايرشى ترافيس " قائل :

"The more strongly a youth is attached to his parents , the more strongly he is bound to their expectations,and therefore the more strongly he is bound to conformity with the legal norms of the larger system.(Hirschi,Ibid,p94) .

ولقد تناولنا فكرة التعلق لدى "هايرشى"، وذاك لأهميتها فى علاقتها بعامل الإشراف الوالدى .

وفى هذا الإطار قـام كل من "ويـلس، رانكان Wells & Rankin 1988، رانكـان وويلـس Rankin & Wells 1990، رانكان وكيرن Rankin & Kern 1994 " باختـبار مدى صـحة نظرية التعلق الوالـدى لـ "هايرشى" حيث أشاروا من جـهة إلى شدة تعـقد طبيعة العلاقة العاطفية (والدين / أبناء)، كما عملوا على دراسته _ التعلق _ فى علاقته مرة مع الأم ومرة ثانية مع الأب . ووصلوا إلى الإشارة إلى أن له دورا متواضعا يلعبه مع بقـية العـوامل الأسرية فى إثارة الجنـوح، بالإضافـة طبعـا إلى عامل الإشـراف الوالدى بالأخص.

وفى دراسـة أخـرى أجـراها كل مـن " فـريشـات ولوبلان Fréchette & Leblanc 1987 "فى مدينة " مونريال" حـيث قورن بين عينة تحت كفالة العدالة قـدر عدد أفرادها بـــ 470 جانحا، بعـينة أخرى قدر عددها بـ ٣٠٧٠ مـراهقًا؛ حيث قاما باخـتبار نموذج يحتوى المتغيرات الأسرية التالية : بنية الأسرة، الجو السائد فى الأسرة، التعلق بالوالدين، التواصل داخل الأسرة، طرائق التربية الممارسة داخل الأسرة، وأخيرا الإشراف الوالدى . حيث وصلا إلى الخلاصة التالـية " ... يظهر أن الإشراف الوالدى ـ بغض النظر عن بنية الأسرة والجو الأسـرى ـ فإنه يلاحظ ارتباطه بمتغيـر التواصل الوالدى من جهة وبمتـغير التعلق الوالدى مـن جهة أخرى، وفى ارتـباطهمـا يؤثران على الممارسات الجناحـية. إن هذين العاملين يبدوان أنهـما يدعمان بعضهـما البعض ..." (Fréchette& Leblanc, 1987,p147).

ثم يضيف "لوبلان Leblanc 1988 "، " أن التعلق العاطفى بالوالدين والتواصل بهما لا يؤثران فى ظهـور الجنوح إلا من خـلال الإشراف الوالدى ... وأن الإشـراف الوالدى هو العامل الأساسى الذى يشحن بقية العوامل الأخرى فى أسرة المراهق ...(Leblanc, 1988,pp 182-183).

بل يعطى " لوبلان " تفسيـرا ديناميا لذلك حيث يذهب إلى "... أن تطور التـصرفات المخالفـة للقانـون ما بين بداية النصف الأول من المراهقـة يرجع قبل كل شـىء إلى عدم كفـاءة الآباء فى استعـمال الوسـائل الإيضاحيـة الخاصة، مما ينتج عنـه تناقص للإشراف

أكثر فأكثر ، الشيء الذى يؤدى إلى ازدياد معاقبة الطفل أكثر فأكثر... فإذا كان ظهور التصرفات الجانحة يرجع سببه إلى نقص وسائل الاتصال، مضاف إليها الشروط الصعبة للحياة، فإن نموها (التصرفات الصعبة) إذا رافقته قلة الاهتمام بالطفل داخل الأسرة سيكون ذلك نتاجًا لعلاقة دينامية معطوبة (Leblanc, ibid., p182).

الشيء الذى جعل " ميكيلى ل " ونظرا لأهمية عامل الإشراف الوالدى فى ارتباطه بعوامل أسرية أخرى، يرى أنه بإمكان الآباء استعمال هذا العامل فى التنبؤ والكشف عن السلوكيات المضطربة مبكرا، وأن يضعا بذلك حلولا للمشكلات المنتظرة التى قد يتعرض لها أطفالهم، إلا أنه لم يشر إلى كيفية ذلك من الناحية العملية.

ونظرا لأهمية موضوع الإشراف الوالدى فى علاقاته مع كثير من المتغيرات الأسرية، أطلق عليه كل من " هايرشى قونفريدسون " Hirschi & Gottfredson 1990، مصطلح "التسيير الوالدى Parental management" الذى فى نظرهما ينقسم إلى ثلاث عمليات:

- الرقابة على سلوك الطفل عامة monitoring .
- القدرة عن الكشف على السلوكيات المنحرفة عند ظهورها Récognition of daviant behavior.
- القدرة على إعطاء العقاب المناسب Appropieté . Punishment فى (Gottefredson M, Hirschi T,1990,P221)

الرأى نفسه ذهب إليه كذلك كل من " لارزليت و باترسون Larzelette Patterson " 1990 من أنه "يجب على الطفل أن يعرف أولا أن سلوكا ما غير مسموح به، وثانيا أن يعرف أن هناك جزاء منتظرا، وثالثا أن يكون هذا الجزاء إنسانيا ومناسبا للفعل، ورابعا يجب أن يقدم هذا الجزاء بصورة حازمة وسريعة , Larzelette & Patterson) 1990,p 97).

وهكذا يظهر من خلال الدراسات المختلفة أن عامل التعلق الوالدى عامل لقى الإجماع بين العلماء، على أنه الأكثر تأثيرا فى الدراسات الإجرامية الأنقلوسكسونية بارتباطه بمهمة الرقابة أو الإشراف الوالدى على الأطفال والمراهقين.

وأن المتابعة الجيدة للوالدين، معناها التعلق الجيد للوالدين بأبنائهم، فلا يجب أن تكون الرقابة من أجل الرقابة، أو المنع من أجل المنع، وهذا ما أثبتته أكثر من دراسة.

3-3-1.حدود الإشراف الوالدى أو الرقابة

ما الذى يؤدى إلى فشل الوالدين فى رقابة والإشراف على أبنائهم؟ فعلى الرغم من الدراسات التى اطلعنا عليها، والتى تجعل عامل الإشراف الوالدى محركا للجنوح، إذا اقترن ببعض المتغيرات الأخرى لدى بعض المراهقين، أو أحيانا حتى قبل المراهقة .

إلا أن الدراسات أثبتت كذلك إلى جانب هذا أن سلوكيات الوالدين مقترنة بدورها بالوضعيات والإمكانات المادية التى يمتلكونها، وهذا ما أشارت إليه دراسة " هاريات ويلسن Harriétt willson 1980 " فى بريطانيا على عينة من الأطفال والمراهقين، مع إجراء مقابلات مع أمهاتهم، ووصلت هذه الدراسة إلى إعطاء الأولوية لعامل الإشراف فى التأثير على ظهور الجنوح من بين العوامل الأسرية المختلفة. إلا أن الدراسة بينت كذلك أن نقص الإشراف هذا هو بدوره وبصفة خاصة مرتبط مباشرة بالعجز الاقتصادى للوالدين (بطالة فقر)، وإلى ما ينتج عن ذلك من قلق واضطراب نفسى.

Lax parenting methods are often result of chronic stress . situation -arising from frequent or prolonged spells of unemployment . physical or mental disabilities among members of the family , and an often permanent of poverty.(Wilson H .1980.p201).

كما أن هناك دراسات أخرى مثل دراسة " لمب و سيمبسون Lamb & Sampson 1988 ، و دافيد ريلى و م. شاو Riley D & Shaw M 1985 " أشارت إلى أن عامل الإشراف الوالدى يتأثر بالإضافة إلى العامل الاقتصادى للأسرة، كذلك يتأثر بالصراع ما بين الأطفال وأسرهم بالأخص(الأب / الطفل)، تأثير جماعة الأتراب، عدد الأطفال داخل الأسرة، جنوح أو كحولية الأب .

ففى دراسة "لمب و سيمسون 1988 وبعد إعادة تحليلهما للمعطيات التى وصل إليها الزوج كلوك فى سنة 1940 بأمريكا، وصلا إلى أن أهم محددات نقص الإشراف الوالدى هو عدد الأطفال، جنوح أو كحولية الأب، وضعية التبعية الاقتصادية للأسرة، وضعية المهاجرين .

أما " دافيد ريلى و م. شاو " وبعد تطبيق دراستهما على عينة بريطانية من المراهقين فى سن 14 و 15 سنة بينوا بالأخص أهمية الدور الاقتصادى، والصراع مابين (الأب/ الطفل)، وتأثير جماعة الرفاق فى التقليل من فعالية الإشراف الوالدى. فى (Mucchielli L , 2000,P70).

وهكذا نتفق مبدئيا مع الخلاصة التى وصل إليها " ميكيلى ل " من أن القيام بالإشراف مفيد، وقدرة ذلك على كشف الانحرافات بصورة مبكرة، وإعطاء الجزاء المناسب الذى يمكن الطفل من إدراكه واستدماجه.. كلها تصرفات تستدعى من الوالدين النظرة الثاقبة، والثقة المتبادلة بين الأبوين والطفل. أما الأكثر تأهيلا فى القيام بذلك الدور فى فترة المراهقة هو "الأب" بالأخص .

إلا أن هذا لا يكتمل فى رأينا إلا إذا استطاع الطفل إدراك عملية الإشراف الوالدى على أنها عملية غير مهددة لكيانه، وليس فيها تضييقا عليه، ولا يتخللها قمع يهدد شخصيته النامية بالأخص فى فترة المراهقة .

4. المعاملة السيئة داخل الأسرة

إن النتيجة التى وصل إليها "لوبلان Leblanc " فى تحليله لعامل الإشراف الوالدى فى إطار النظرية الدينامية، والتى مفادها أنه كلما نقص الإشراف الوالدى نتج عنه ارتفاع معدل عقاب الطفل، أى أنه فى الحقيقة كلما نقص التواصل ما بين الوالدين من جهة، وما بين الأبوين والأبناء من جهة أخرى، بالإضافة إلى عوامل أخرى يرتفع معه العقاب لسلوكيات الطفل داخل الأسرة . هذا العقاب قد يصل فى كثير من الأحيان إلى أن يتحول إلى استعمال العنف ضد الطفل، وهذا ما يدفعنا إلى محاولة تتبع ظاهرة استعمال العنف داخل الأسرة ، ومدى تأثيرها بالأخص على الجانح، وكيفية انتقالها عبر الأجيال إن صح التعبير.

1.4. أنماط المعاملة السيئة داخل الأسرة

إن مجال المعاملة السيئة معقد بطبعه لأنه موضوع يقع مابين تداخل عدة عوامل فردية واجتماعية أو السياق نفسه، والجو العام داخل الأسرة.

ولذلك تظهر المعاملة السيئة فى كل البيئات الاجتماعية، ومن ضمن هذه البيئات التى هى مجال اهتمامنا هى البيئة الأسرية، وما يقع فيها من سوء معاملة للطفل والمراهق.

قبل الولوج فى تفسير المعاملة السيئة أو القاسية، يتحتم علينا تحديد مجالها على الأقل ، من خلال تعريفها؛حيث تعرفها الجمعية الأمريكية للسايكاتريين " تطلق المعاملة السيئة كلما قام أحد الكبار بإيلام طفل سواء كان الألم نفسيا أو جسميا (جروح) أو أخلاقيا، أو استغلال جنسى، وما يتبع ذلك من نقص الغذاء والملبس والعلاج والسكن غير المناسب، أو الامتناع عن منحه الاهتمام والعناية العاطفية، وغياب الرقابة والحماية المناسبة، وكذلك إجراء تجارب مهنية ومذلة، وعزله بالقوة ومنعه من التواصل بالآخر، وبالأخص إذا كان هذا الآخر مهما على المستوى الانفعالى، غير أن هذا التعريف يلاحظ أنه واسع، ولذلك لا يكون صالحًا لبعض المجتمعات التى مازال فيها الأفراد لا يجدون سكنا يأويهم، ولا عملا يقتاتون منه.. الشىء الذى يدفعهم أحيانا إلى توجيه أبنائهم وفى سن مبكرة إلى القيام بأعمال قد تكون شاقة، وفى أحيان كثيرة مهينة. فهل يمكن وصف هؤلاء الآباء بأنهم يسيئون المعاملة لأبنائهم .

أما "كاشرو Kachroo 1992 " فقد حدد أنماط المعاملة السيئة كالتالى:

- الإساءة السيكولوجية Psychological abuse
- الإساءة الجنسية Spxual abuse
- الإساءة الفيزيقية Physical abuse
- الإساءة الاقتصادية Economical abuse
- الإساءة القانونية Legal abuse
- الإساءة السياسية Political abuse
- الإساءة الإيديولوجية Ideological abuse (Kachroo, G..1992).

فى حين قرر " بارنز Barnes 1990 " أن سوء المعاملة النفسية هى أكثر أنواع الإساءات تأثيرا على الطفل، نجد " سبرنجل Sprengle 1990 " يقرر أن الإساءة الفيزيقية هى اكثر أنواع الإساءات تأثيرا على حياة الطفل عموما، والمعرفية خصوصا، ويؤيده فى ذلك ما توصلت إليه "لى Lee 1991 " من أن الإساءة الفيزيقية تؤثر تأثيرا بالغا على حياة الطفل " (د/ هبة إبراهيم القشيشى، 1999، ص 2).

وهكذا يظهر أن كل أنواع المعاملة السيئة تؤثر على ذكاء الطفل، وقدراته العقلية والمعرفية، تليها الإساءة الجنسية، مما ينتج عنهما بعض اضطرابات التفكير لدى الأطفال.

"كما أن نسبة ذكائهم تقل فى العادة عن نسبة ذكاء الأطفال الأسوياء، لأن الإساءة إلى الطفل تعوق قدراته وبالتالى نمو ذكائه " (المرجع نفسه ص 3).

وعموما يرى حسب " فرانسوا هامان François hamon 1999 " تظهر المعاملة السيئة للطفل فى ثلاثة أشكال كبرى، وهى :

ـ بشكل غير مباشر أو ماكر Forme insidieuse ou indirecte : ويظهر ذلك فى العلاقات اليومية، وترتكز بالأخص هذه العلاقات على مناخ غير آمن وكامن. وتظهر آثار ذلك حسب عمر المتعرض إلى سوء المعاملة (يتمكن المراهق من التحمل احسن من طفل صغير)؛حيث يصبح الطفل لعبة بين والديه، أو وسيلة للتعبير عن اضطراباتهم ومشكلاتهم .

ـ بشكل مباشر Forme directe : وهنا تظهر المعاملة السيئة بصورة مباشرة، وعلى شكل قواعد تربوية موجهة للطفل، حيث يفرضها المعنى (الأب أو الأم أو أحدهما) . ولا يمكن لأحد أفراد الأسرة أن يعبر عن عكس ذلك.. إنها شكل من أشكال سوء المعاملة الذى يبدأ إما بمناسبة تكوين العش الزوجية ويزداد أكثر عند ظهور الأطفال، أو بمناسبة ظهور أول طفل، وما يصاحبه من عوامل مفجرة للمعاملة السيئة.

ويرجع ذلك "فرانسوان هامان " إلى النقص الكبير الذى يحس به الممارس لسوء المعاملة، وقد يكون هذا النقص عاطفيا أو فكريا أو معرفيا أو نرجسيا أو بسبب نقص النضج " (Francois Haman ,1999,p74) .

وهكذا يرى "هامان " أنه كلما كانت المعاملة السيئة خطيرة كانت مختفية أكثر أو غير معترف بوجودها من قبل الأسرة . ويظهر هذا الشكل أكثر لدى الشخصيات المنحرفة Pervers، وكذلك لدى الشخصيات المصابة بالذهان الهذائى Paranoia، مع مصاحبة كل ذلك بالكحولية، وفى حالة استمرار هذا الشكل المخفى.. يمكن أن يتحول مع الوقت إلى عنف جنسى.

ـ بشكل عنف مشهدى Forme spectaculaires : وتظهر المعاملة هنا فى شكل

علاقة عنيفة تتواجد بالأخص لدى الأسر المرضية (تخلف عقلى، ذهانية، حالة حدية، ذهان فصامى...).

ويمتاز الذى يمارس هذا العنف كما يرى "هامان" بالإحساس بعدم الأمن، ونموذج من العلاقات المرضية المعاشة يومياً ؛حيث يصبح هذا النموذج مقبولا من قبل الطفل مما يجعله يكرره عن طريق ممارسته، لغياب أى نموذج بديل عن ذلك .

أما أسباب ذلك فترجع حسب "هامان" إلى النقص الخطير فى الجانب العاطفى والتربوى والفكرى للوالدين، بينما تتميز الأسرة التى تمارس هذا الشكل من المعاملة القاسية بالاستيلاء الكلى L' emprise، والمظهر الديكتاتورى، وعدم الاعتراف بالغير . وبذلك يصبح كل فرد فى الأسرة وسيلة لتعبير سادى وغريزى هدام فى يد (الأب أو الأم)، وقد يكون هذا الفعل موجهًا إلى مجموع الإخوة والأخوات، أو الطفل بعينه بمثابة كبش فداء .

وعادة ما يبرر استعمال المعاملة القاسية بحجة خطأ الطفل، أو بحجة إصلاح سلوكه، وأحيانا دون أى سبب مع تكرار هذه السلوكيات بشدة وبصورة صادمة. وينصب شكل هذه المعاملة على الجسم والنفس، كما يمكن أن تكون متبوعة باستعمال التعذيب أو الأعمال البربرية؛ مما يدل على أن التنظيم ونمط المعيشة الأسرية يحمل فى طياته أصلا العنف، لذلك قلما يخرج الطفل ناجيا من هذا المحيط. (François Haman ,1999,p75).

إلا أن " بارودى Barudy 1988 " يرى المعاملة القاسية على أنها مجرد تكرار للعنف كطريقة للاتصال يمكن أن ينتمى لأنماط أسرية مختلفة ناقلة للعنف، وبذلك يمكن إيجاد ثلاث وضعيات مختلفة للمعاملة القاسية :

ا- وضعية الفقر العاطفى : وفى هذا يشير " أولوس ج Auloos G 1979 " إلى الوالدين الذين بدورهم يحسون بالفقر العاطفى؛ مما يجعلهم يفرضون على أبنائهم رغبة الاحترام لهم، ومجاملتهم، والتفرغ المبالغ فيه لهم، وإذا تم العكس يتحول سلوك الوالدين إلى ممارسة مكثفة للمعاملة السيئة لأبنائهم، كذلك يشير "أولوس ج" إلى الوالدين الذين يريدان تعويض فقرهما العاطفى بحيث يصل بهما الحد إلى الاستيلاء على تاريخ أبنائهم، ومن خلالهم يحاولون إنجاز ما لم يستطيعوا فعل ما

كانوا يرغبون فيه...إلى حد الوصول أحيانا إلى تكوين علاقات محرمة مع أبنائهم وذلك دون أو بالمرور إلى الفعل " (Aulos G , 1979, p378)

2ـ اضطراب وظيفة العلاقة بالسلطة : وهنا يصبح الطفل حسب "بارودى " لا يفرق بين وظيفة السلطة الأسرية (توفير الحب/ رفض وانتقام)، وغياب المعالم المرجعية أو تحديد حاجاته.

3 ـ الصراع ما بين الكبار (الوالدين) الذى يصل إلى حد أخذ الطفل كرهينة ليستعمل ضد الطرف الآخر.(Barudy G, 1988, p20).

من جانب آخر يؤكد "د. برنقارد Brengard D 1996 " أن المعاملة القاسية وما يتخللها من عنف، ليس بالضرورة مرئياً، وإنما العنف الأكبر كما يقول إنما يعبر عنه بمحو آثاره وعدم الاعتراف به، واستعمال قانون السكوت.

La violence la plus grande n, est pas forcément la plus visible , mais elle est souvent celle du négatif, se traduisant par l'effacement des traces , le déni et la loi du silence .(Brengard D, 1966.P38).

2.4.المعاملة السيئة وظهور الاضطرابات المبكرة وعلاقاتها بالآخر

من خلال مؤلفه المعنون Forty - Four juvénile theives, their characters and home life, 1946 أوجد "جون باولبى Bowlby J " فى إطار علم النفس وعلم الإجرام ما اسماه " بالنقص (الفقر) العاطفى " Carences affectives حيث مازال إلى يومنا هذا اسمه مرتبطا بـ "نظرية التعلق (الارتباط) Théorie d' attachement " التى ذهب فيها عموما إلى أن العلاقة بين الطفل والأم (الحارس الأساسى) هى التى تحدد الإحساس بالأمن الأساسى ، الذى يمكن من خلاله للطفل أو لا يمكن له بناء إحساسه بصورة جيدة لقيمته وثقته بذاته، التى دونها لا يمكن بدوره ربط علاقات عاطفية بنوعية جيدة ومع محيطه . وبهذا يصبح النقص العاطفى أحسن عامل ينبؤنا بتطبيع اجتماعى مستقبلى.

وبعد مدة وجدنا " شيلدون و اليانور قلوك 1950 Sheldon & Eleanor Gluck " يقارنان مابين 500 مراهق بدون مشكلات ظاهرة، و500 مراهق جانح . ومن بين كثير من العوامل، أكد "قلوك " العلاقات العاطفية بالأخص ما بين الوالدين والأطفال؛ حيث

إن نسبة الآباء غير المبالين فى عينة الأطفال الجانحين ارتفعت إلى 43% مقابل 16% لغير الجانحين، أما الرفض فتمثل بنسبة 17% لدى الجانحين مقابل 3% لدى غير الجانحين .

فى حين ظهر ذلك لدى الأمهات بالنسبة لمتغير اللامبالاة (21% مقابل 3%)، أما الرفض (7% مقابل 1%)، الحماية الزائدة (24% مقابل 15%). فى (Mucciellі L ,2000,P39).

ويضيف "قلوك" فى " ميكيلى ل " أنه لا يكون غريبا أن نرى الجانحين بدورهم لا يظهرون تعلقا بوالديهم، فهم مرتين أقل تقربا من والديهم مقارنة بغير المراهقين .كما لا يريدون أن يكونوا مشابهين لآبائهم بـ (17% مقابل 52%) من المراهقين الذين يريدون أن يكونوا مثل آبائهم أى (ثلاث مرات أقل). أما بالنسبة لمتغير الرفض فهم أى الأطفال الجانحون يقولون (بأربعة مرات أكثر) من المراهقين أى بنسبة (30% مقابل 7%).

وهكذا يصل " قلوك " إلى تأكيد حسن المعاملة والعلاقات الحارة والمتينة، التى يجب أن ينسجها الأب بالأخص مع الطفل .

كما وجد "قلوك " أن تعلق الجانح بأمه كان ضعيفًا مقارنة مع المراهقين العاديين، وأحيانا متناقضا. كما لاحظ أن هناك لا مبالاة بين الإخوة والأخوات . وهكذا عموما يرى أن الجانحين يحسون بأن والديهم تخلوا عنهم، وهذا يعززه قلة كلام الوالدين مع أبنائهم حول مستقبلهم، وقلة اهتمامهم بمسارهم الدراسى، مع إنجازهم القليل من الأشياء.

وقد أيد كثير من الدراسات (قرين ليف Greenleaf, 1990، ستيلووتر Stillwater, 1991، موسكا Mosca, 1992...إلخ) أن العنف الأسرى أو المعاملة السيئة، يرتبط بنوع الوالد، فإذا كان الأب عنيفًا أثر ذلك أكثر على الأبناء الذكور، والعكس صحيح، وقد يكون عنف الأب شديدا على أحد الأبناء، مما يترتب عليه عنف أشقائه أيضا؛ الشىء الذى يدفعنا إلى الاطلاع على الدراسات، التى اهتمت بمعالم الطفل المعرض مستقبلا للجنوح.

5.معالم الطفل المعرض مستقبلا للجنوح

إن المعاملة السيئة وفى إطارهـا العنف لا تكون بالظرورة فقط مسلطة من المحيط على الطفل أو المراهق، ولكن قـد تكون كـذلك صـادرة منه، وهى بذلك عـامل قـد ينتج عنه دخول الطفل مـستقـبلا فى الجنوح. وهذا ما أثبـته كثـير من الدراسات الحـديثة ، من أن بعض الأطفال يظهر على سلوكهم العنف المبكر، وقد يستمر معهم إلى غاية دخولهم فى الجناح المبكر ؛ ليستمر بعد ذلك إلى أن يصل إلى عالم جريمة الكبار.

وفى هذا المجال يحـتل الأستـاذ "ريتشارد ترومـبلاى Tremblay R " فى جـامـعـة مونتريال بكندا مكانة مرموقة، لما بذله منذ السبـعينيات من جهد فى هذا الموضوع؛ حيث أظهرت البحوث التى أجراها مع مختلف مساعديه، أن التصرفات العنيفة التى تظهر قبل حلول فترة المراهقـة، وبالذات فى ما بين 6 إلـى 8 سنوات من عمر الطفـل لها تأثير على تكوين شخصيته مستقبلا.

لكن ماذا سيكون عليه مستقبل هؤلاء الأطفال ؟

فى هذا المجال طلب "ترومبلاى " من معلمى عينة الأطفال التى كان عمرها يتراوح ما بيـن 6 إلـى15 سنة تقييم سلوكـياتهم بواسطة الملاحظة، وبذلك وصل إلى وضع أربعة مسارات مختلفة لهؤلاء الأطفال.

* فـــ 4% من أطفـال هذه العينة هم أفـراد ذوو سلوك عنيف ودورى . ولم تتـغيـر تصرفاتهم فى ما بين 6 إلى 15 سنة.
* و28% من أفراد العـينة تعتبـر سلوكياتهـم عنيفة ابتـداءًا من عمر ست سنوات، غـير أنهم مالوا إلى الهدوء بمرور الوقت .
* و53% من أطفال العـينة اتسمت سلوكـياتهم نسبيا بالعنف فى عـمر ست سنوات، وقلت درجة العنف فى تصرفاتهم كلما تقدم بهم العمر.
* و14% من أطفـال العـينة لم يلاحظ على سلوكـيـاتهم العنف فى مـخـتلف مـراحل عمرهم.(Pinard & *et al* ,2000,pp115-198) ، وما نستنتجه من هذه الدراسة أن العنف بالأخص الجسمى لا يظهر بطريقة أخرى بعد عمر 6 سنوات، فهو إما ينقص وإما يتطور.

وفى الدراسة نفسها قـام "ترومبلاى" بتوجيه أسئلة إلى الأمهـات والقائمات بالأمومة

حول الوقت الذى يمكن أن يظهر فيه العنف لدى الطفل ؛ فوجد أن سلوك العنف يظهر قبل عمر الدخول المدرسى، أى فى السنتين الأوليين . وبهذا ربط "ترومبلاى " العلاقة بين سلوكيات الطفولة الأولى العنيفة قبل عمر ست سنوات والجنوح، ووصل إلى القول بأن مجموعة الأطفال ذوى السلوكيات العنيفة فى الطفولة الأولى يتفوقون فى المراهقة بخمسة مرات فى استعمالهم العنف على مجموعة الأطفال غير العنيفين.

أما فى شرحه لسبب ظهور هذا العنف المبكر، يذهب " ترومبلاى " إلى القول بأن هناك استعداداً بيولوجيّاً، وهو بذلك يرجع بنا إلى مقولة " لومبروزو " الذى رأى أن الجريمة تنقل عبر الوراثة، كما يقترح " ترومبلاى " لإبطال هذا العدوان المبكر أن يعلم الطفل قواعد الحياة والعيش الجماعى فى عمر مبكر.

وبهذا يصل إلى القول بأن ظهور العنف المبكر فى سلوكيات الأطفال ما قبل سن التمدرس وما بعده يمكن أن يستمر إلى أن ينفجر على شكل جنوح.

وتتبعًا لمعلم الطفل المعرض للخطر، أظهرت الدراسات الوبائية (الأبيدمولوجية) التى أجراها السايكاتريون، وأطباء الأطفال أنه يمكن من السنوات الأولى ،وعن طريق بعض التصرفات، تحديد الأطفال الذين يمكن أن يتحولوا إلى الجنوح.

ففى دراسة طولية أجرتها وحدة " المرض الاجتماعى "Pathologie sociale" التابعة لهيئة "INSERM" الفرنسية، أوضحت أنه يمكن من السنة الأولى للميلاد، الاعتماد على مجموعة من العوامل لتحديد خطر " سهولة العطب fragilisation " النفسى والجسمى، الذى يمكن أن يستمر فى مراحل الطفولة المقبلة، وهذه العوامل هى: مختلف اضطرابات النوم، الصحة العامة، ضيق التنفس، اضطرابات المزاج، نوعية التطبيع الاجتماعى.

كما أثبت البحث نفسه أن هؤلاء الأطفال ذوى الخطورة، اتصف ماضيهم بعدم الاستقرار الأسرى، وسهولة العطب النفسى ... إلخ.

أما أمهاتهم خاصة ،فإنهن اختلفن عن الأخريات من حيث إن معظمهن أصبن بصعوبات أثناء الحمل أو الوضع، كما أن البحث لم يجد ارتباطا بين هذه الحالات (الأطفال ذوى الخطورة) وحالاتهم الاجتماعية والديمغرافية، ولا حتى نمط حياتهم

داخل أسرهم، بينما ارتبطت حالاتهم بالصفات النفسية للأم كالاتجاه نحو الاكتئاب، النوعية العامة لعلاقات الأم.

أما " أسوفسكى وآخرون Osofsky *et al* 1993 " فقد وجدوا أن أطفال الأمهات المصابات بالاكتئاب هم عرضة للمشكلات المرتبطة بضبط المؤثرات التى تظهر بالأخص على شكل اكتئاب مبالغ فيه؛ مما يجعل أطفالهن عرضة أكثر لعدم ضبط الانفعالات .(Osofsky J ,*et al* ,1993, p 259)

كما بينت الملاحظة التى أجراها فريق الأستاذ " هيبار مونتانيه" Mantagner Hubert 1988 حول الكشف عن العدوانية المبكرة لدى أطفال الروضة ودور الأمومة فى السبعينات والثمانينات .فعندما وضع هؤلاء فى وضعية منافسة مع الأقران حول بعض (الأشياء والألعاب)، ثم قورنت سلوكياتهم بوضعيات أخرى لا تتوافر فيها المنافسة .. وجد "هيبار و معاونوه" أن الأسباب الأساسية التى تدفع الأطفال إلى استعمال العدوان فى وضعيات لا منافسة على الأشياء، وإنما ترجع إلى العلاقات الأسرية لهؤلاء، حيث تميزت هذه العلاقات بصعوبتها بالأخص مع هؤلاء الأطفال، وذلك راجع إلى السلوك القمعى الذى يستعمله الوالدان نحو أبنائهم وبالأخص الآباء.

أما بالنسبة للأمهات.. فإنهن اتجهن بالأخص نحو العنف، كما يقول " فالونزويلا وآخرون Valenzuila *et al* 1992) والتملك المبالغ فيه، والحط من القيمة، ومنع الطفل من الذهاب إلى الأب (Valenzuila A , *et al* ,1992,p 425) .

وقد جاء فى دراسة " لندن Lindon , 1990 " أن نصف عينة الدراسة البالغ قوامها (60) مفحوصًا من الأطفال المساء إليهم وأسرهم كانوا يتعاطون الكحوليات بالإضافة إلى تعاطى الكوكايين؛ مما يشير إلى أن هناك علاقة بين الإساءة إلى الطفل والتعاطى، والعنف الناتج عن ذلك . فى(إبراهيم القشيشى، 1999، ص 4).

كما ظهر من دراسة "البحيرى وآخرين 1994 " أن المعاملة السيئة للأطفال نتج عنها كثير من السلوكيات المنحرفة، مثل: السرقة، الكذب ،عدم الأمانة، والغش... والسرقة على سبيل المثال تعد سلوكا تعويضيا رمزيا عن الحرمان العاطفى، وتدعيما لتقدير الذات المنخفض لدى الطفل المساء إليه فضلا عن ذلك زيادة الشعور بالوحدة؛ نظراً لفقد

الموضوع الاجتماعى، وبالتالى زيادة السلوكيات العدوانية، والإيذائية ومقاومة السلطة (عبد الرقيب أحمد البحيرى، 1994، ص ص 84-100).

وهكذا يظهر أن المعاملة السيئة داخل الأسرة وبين أفرادها، وبالأخص بين الأب والأم من جهة والطفل من جهة أخرى لها آثار وخيمة، تؤثر على شخصيته.. كما تؤثر على سلوكياته مما قد يؤدى ببعض الأطفال إلى دخول عالم الجنوح ليصبحوا بدورهم يستعملون العنف ضد غيرهم . ولعل هذا ما أطلق عليه العلماء دائرة إعادة إنتاج العنف، فما هذه الدائرة ؟

6.دائرة إعادة إنتاج العنف بين الأجيال

تجرى مقولة على السنة الناس حاليا مفادها أن العنف يلد العنف، وهى مقولة قد أثبتها كثير من البحوث والدراسات (ايرون وآخرين Eron *et al* 1990، ويدوم وأمس Widom & Ames1994، سميث ثورنبيرى Thoranberry S 1995، مالينواسكى وآخرين Malinosky *et al* 1993).

ففى بحث أجراه " كاتى ويدوم Caty Widom 1989 " على عينة مقدارها 900 فرد استعمل فيها المنهج الطولى، أثبت فيها أن العنف الجسمى المبكر يمكن الاعتماد عليه فى التنبؤ بالسلوك العنيف فى المستقبل، وكذلك ما سيمارسه هذا الفرد بدوره مستقبلا على غيره.

فحسب النتائج تبين أن $3/4$ من أفراد العينة التى مارست على غيرها (اعتداءات، مداعبات جنسية على الأطفال، اغتصاب، قتل ...إلخ)، كانوا هم بدورهم قد تعرضوا فى طفولتهم سابقًا إلى ممارسة العنف ضدهم (Widom C ,1989. PP 162-166).

كما بينت دراسات أخرى (قودنزى وديبى Godinzi & Depey1999، مالينوسكى وآخرون Malinosky *et al* 1993 ،ثورنبيرى سميث Thornberry S 1995، يودانيس ستروس Yodanis S 1996 ... إلخ)، أنه إضافة للعنف الجسدى، يتأثر الطفل كذلك بالعنف النفسى، والعنف الذى كان الطفل شاهدًا عليه، كعنف الأب على الأم وعلى بقية الأطفال، كما أن هناك حدودًا ضيقة تفصل بين العقوبات الجسدية والمعاملة السيئة . فيكفى أن تحس أنك ضحية للعقوبات من والديك، إذ يمكن أن يعتبر عاملاً منبئًا لعنف

مستقبلى على الأطفال والمراهقين؛ مما قد يدفع الطفل إلى إدراك ذلك على أنه رفض عاطفى.

كما بين "كوفمان Kaufman 1999 "، أن العنف المسلط على الطفل يعتبر عاملاً مهمّاً فى سلوك الهروب، والذهاب المبكر من منزل الأسرة، وهذا ما ينمى بقوة خطورة أن يصبح الطفل ضحية، قبل أن يكون المتسبب فى أعمال جناحية مرتبطة بالتسكع " (Mucchielli L ,2000,p 43).

كما أظهرت نتائج دراسة " تمبرلاك Timberlake 1978 " أن الإساءة الفيزيقية تتسبب فى شعور الطفل بالفقدان والانفصال عن الأسرة، وزيادة السلوك العدوانى، والعنف كوسيلة من وسائل التكيف للطفل مع زيادة مشاعر الاكتئاب، وأن الأب الذى يسئ إلى طفله يسئ إلى غيره فى المستقبل فى (د/ إبراهيم القشيشى، 1999، ص9).

وهكذا على العموم، يلاحظ أن كثيراً من الدراسات أثبتت أن الطفل إذا تعرض إلى عنف مبكر (اعتداءات مباشرة أو غير مباشرة)، سيكون هذا العامل مساعداً على نقل العنف إلى غيره.

وهذا كما جاء فى "سى موسى 2002 " أن "...الشخص المتعرض للعدوان قد يتقمص شخصية المعتدى، ويقوم بدوره بالعدوان نحو الآخرين فيما بعد ..."، (عبدالرحمن سى موسى، 2002، ص 28). وهذا ما يطلق عليه التماثل بالمعتدى، وهو فى رأى "سى موسى " ميكانيزم دفاعى، يستعمله الشخص الذى يتعرض للعدوان للتعامل مع هذه الوضعية ... حيث يشكل مع مواضيع أخرى إحدى وسائل الدفاع الأكثر قوة ضد المواضيع الخارجية المولدة للقلق (المرجع نفسه، ص 28).

ويفسر "سى موسى " ذلك، " أن التماثل بالمعتدى عملية نفسية يحاول الطفل من خلالها التكيف مع وضعية التهديد والعدوان الموجه ضده، فيعمد إلى تقليد سلوك العنف المرتكب ضده ويكرره ضد الآخرين، كوسيلة لا شعورية للتخفيف من حدة مشاعر الذعر والفزع وعدم القدرة التى يعانيها، فينسى شخصيته الخاصة به بتحوله من شخصية ضعيفة _إلى من يقوم بالعدوان ويتبناه " (المرجع نفسه، ص 29).

إلا أن " جيرار بوسان Gérard Poussin 1999 " لايعنى لديه إعادة ممارسة المعاملة السيئة على الغير "إعادة إنتاج الفعل Reproduction "، بالضرورة ما أحس به هؤلاء

عندما كانوا أطفالاً صغاراً بصورة شعورية، ولا حتى مجرد "إعادة له Repetition " بالمعنى التحليلى . وإنما يمكننا التكلم فقط عن شكل من أشكال العلاج الذاتى لهؤلاء الممارسين للعنف على حساب القادم الجديد طبعًا.

ويضيف قائلا " إن كل الآباء المسيئين لأبنائهم لهم على العموم أسبابهم فى تاريخ مسار حياتهم، كما أنه لا يجب استخلاص أن كل الأطفال الذين مورس ضدهم العنف سيكونون بدورهم كذلك ،... بل إن ذلك يتأثر بعوامل كثيرة من بينها طبيعة المعاملة السيئة نفسها" (Gérard Poussin , 1999.pp214-215).

هذا الرأى يدعمه كذلك " رويير .م و دروى .م Rouyer M & Drouet M , 1986 " أن ..."كل الآباء الذين عاشوا فى طفولتهم الفقر العاطفى، أو الانفصال، أو سوء المعاملة لا يصبحون بالضرورة بدورهم يعاملون غيرهم بعنف، لأنه بالتجارب الجديدة التى حصلوا عليها فى مسار حياتهم يمكن أن تغير مجرى وجودهم ..." (Rouyer M, Drouet M , 1986,p118).

وكخلاصة عامة لهذا النقاش.. ظهر من خلال التحليل أن محددات الجنوح متعددة ومتداخلة، ولا يمكن فى الأخير عزوها إلى متغير واحد أو اكثر .

إلا أن الملاحظ أن العوامل المتداخلة فى الجنوح تظهر من خلال الدراسات المختلفة التى ذكرناها أنها لا تشارك بالدرجة نفسها فى تفجير الجنوح لدى المراهقين، رغم ما فى مرحلة المراهقة من اضطرابات جسمية وعلائقية، تنعكس فى ظهور الإحساس بالألم النفسى الذى يتأثر إلى حد كبير بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية من جهة، وبمرونة أو عدم مرونة شخصية المراهق من جهة أخرى، والذى عادة ما يعبر عنه سلوكياً عن طريق تصرفات الانتحار وتعاطى المخدرات والميل إلى استعمال العنف.

وإنما هناك المؤثر الرئيسى البروز الذى قال به "بيرت .س Burt C "، وهو فى نظرنا هنا ما يقع داخل الأسرة وما يدور بها من دينامية داخلية وخارجية . أما العوامل الأخرى فهى عوامل مساعدة للعامل الرئيسى، كما يظهر أن هناك ظروفًا ثانوية مهيأة يمكن أن تساعد على تفاقم الحالة أكثر.

وكما مر معنا من دراسات تناولت دينامية الأسرة من الداخل ،أى علاقات أفراد الأسرة كنسق دينامى كلى، وما يتخلله من أنساق تحتية فرعية .. كعلاقة (الأب / الأم)،

علاقة(الأب/ الطفل)، وعلاقة (الأم/ الطفل)، وعلاقة (الطفل/ الأخوة)، وغيرهم من العلاقات الأسرية.. هذا الكل من العلاقات بين جميع إفراد الأسرة، وما يؤثر فيه من أشكال بنية الأسرة، وطبيعة الإشراف الوالدى، وما يمكن أن يتخللها من عنف وإمكانة ظهور اضطرابات مبكرة (الفقر العاطفى)، ومدى انتقال العنف عبر الأجيال...إلخ، كلها عوامل تساعد الأسرة على إنتاج الجنوح.

وهكذا يظهر أن متغيرات الجنوح منها ما هو ذو طابع فردى (صحى ونفسى وعاطفى ومعرفى)، ومنها ما هو ذو طابع بيئى محيط (العلاقات الأسرية التفاعلية وكل محيط الطفل) مضاف إليهم كيفية إدراك الجانح لهذا الكل المتداخل، الذى لا يمكن عزله عن بعضه البعض.. فالبيئية ما هى إلا امتداد لداخل الفرد وما داخل الفرد إلا انعكاس فى كثير من عناصره للبيئة بكل مكوناتها المتناقض أحيانًا؛ بحيث لا يمكن فصلهما عمليا عن بعضهما البعض، بل يمكن تدعيمهما معا للوصول إلى السلوك الأنسب والمحترم للآخر.

هذا الكل المتفاعل والمتناقض أحيانًا فى شخصية الجانح جعل تناولات نظرية عديدة، تحاول إعطاء تفسير لسبب سلوك الجانح، الذى ينظر إليه المجتمع على أنه خروج عن العادى، ودخول فى اللاشرعى غير المقبول المضر بالكل .